الإصلاح العقدي عند الشيخ عبدالحميد بن باديس
1308-1359هـ (1889-1940م)

أ. د. سليمان بن صالح الخصن
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/
الرياض- المملكة العربية السعودية

مقدمــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن من رحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم أن هيأ لهذا الدين من ينصره ويجدده، ويزيل عنه ما علق به من الشوائب والبدع، ويدعو الناس إلى الرجوع إلى معينه الصافي والتمسك بأصوله، ويحذرهم من العدول عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وإن من أولئك الأعلام والدعاة المصلحين الشيخ الإمام عبدالحميد بن باديس المولود عام 1308هـ(1889م) والمتوفى عام 1359هـ (1940م) والذي استطاع – بتوفيق من الله- وفي فترة وجيزة أن يحدث تغييرا في مجتمعه في نواحي متعددة وبوسائل متنوعة في المجال العقدي والعلمي والاجتماعي والتربوي وغير ذلك ومن خلال الدروس والمحاضرات واللقاءات والمراسلات والصحف والمجلات وغيرها

وبأسلوب الداعية المشفق والمصلح الحكيم والسياسي الواعي والعالم المقنع والقيادي البارع.

وستتركز هذه المشاركة على تناول جانب واحد من جوانب الإصلاح التي اهتم بها الشيخ ابن باديس ألا وهو الإصلاح العقدي الذي يعد الأساس الذي تبنى عليه الأفكار والتصورات والعلاقات والذي بصلاحه يصلح المجتمع ويسعد الناس في دنياهم وآخراهم ويتحرروا من قيود الخرافة والتبعية والعبودية لغير الله تعالى.

وقد أولى الشيخ ابن باديس هذا الجانب اهتماماً عظيماً لعلمه بأنه الأصل الذي يوجه المسار، وفي هذا يقول ~: إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا، وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر[1].

وسأشير إلى جهود الشيخ في هذا الجانب من خلال المسائل التالية:

[1] مصدر التلقى عند الشيخ ابن باديس.

[2] تحذير الشيخ ابن باديس من طرائق أهل الكلام.

[3] تقرير الشيخ ابن باديس أهمية التوحيد.

[4] تحذير الشيخ ابن باديس من الشرك ووسائله.

[5] تحذير الشيخ ابن باديس من البدع وأهلها.

ولعل هذه المسائل تكون كافية في تجلية منهج الشيخ في الإصلاح العقدي وتشير إلى جانب من جهوده في هذا المجال.

(1) ابن باديس حياته وآثاره 101/1.

وقد رأيت في عرض هذه المسائل أن أجعل نصوص كلام الشيخ هي الأصل المبين لآرائه وأن يقتصر عملي على جمع بعض النقول والربط بينها والتعليق عليها دون إسهاب في الاستدلال عليها أو مناقشتها.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أولاً: مصدر التلقي عند الشيخ ابن باديس:

إن المتأمل لكتابات الشيخ عبدالحميد بن باديس ليدرك بجلاء صراحة الشيخ وتأكيده على أن مصدر التلقي في الإسلام للعقائد والشرائع هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وآثار السلف الصالح واعتماد فهمهم لنصوص الكتاب والسنة إذ هي أصدق الفهوم لحقائق الإسلام.

وهذا الأمر ظاهر وواضح في منهج الشيخ وتأسيس دعوته وقد ذكر في أصول دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ما يلي:

«3- القرآن هو كتاب الإسلام.

4-السنة- القولية والفعلية- الصحيحة تفسير وبيان للقرآن".

5- سلوك السلف الصالح- الصحابة والتابعين وأتباع التابعين- تطبيق صحيح لهدي الإسلام.

6-فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة.

17-ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان»[1].

ويقول الشيخ ابن باديس: «وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا وسنة نبينا وسيرة صالح سلفنا ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الآخرة»[2].

وبخصوص الاستدلال للمسائل العقدية فإن الشيخ ابن باديس يؤكد على أهمية ربطها بالكتاب والسنة وكفاية الأدلة الشرعية لذلك وفي هذا يقول:

«أدلة العقائد مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان ونهاية التيسير وأدلة الأحكام وأصولها مذكورة كلها فيه وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسل ليبين للناس ما أنزل إليهم، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم»[3].

ويقول: «ما أحسن التفسير عندما تعضده الأحاديث الصحيحة»[4].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره للدكتور عمار الطالبي 133/132/3.

(2) تفسير ابن باديس، ص197 عن فلسفة الإمام ابن باديس للدكتور بركات مراد، ص92.

(3) تفسير ابن باديس، ص178، عن المرجع السابق.

(4) تفسير ابن باديس، ص305، عن المرجع السابق.

ولا ينسى ابن باديس– وهو الداعية الفقيه–أن يوجه أهل العلم بأنه ينبغي عليهم «إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم...» (1).

ولم يسلم ابن باديس من انتقاد بعض أهل زمانه من المتعصبة حيث أنكروا عليه التزامه بالرجوع إلى الكتاب والسنة في كل مسألة فرد عليهم بقوله: «لما كتبنا في الجزء الماضي في تحقيق العبادة الشرعية تحرينا الاستدلال بالكتاب والسنة وهدي الصحابة لأن المسألة مسألة دينية وهذه هي مآخذها، ولأنها حري فيها الخلاف والله تعالى يقول:﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلاً﴾ (2).

فقال عنا أحد الكتاب في جريدة (آتى البيوت من ظهورها) فسمى استدلالنا بالكتاب والسنة وهدي الصحابة أتيانا للبيوت من ظهورها وهي كلمة مصادمة للآية العظيمة المتقدمة وغيرها، ولعل الكاتب لم يتفهمها ولم يدر مقتضاها وإلا فما كان لمسلم أن يقولها، ثم إذا كان الكتاب والسنة وهي سادات الأمة ظهورا للبيوت فما هي– يا صوفي الزمان– أبوابها. ما عندنا– والله يا أخي– إلا هذه التي جعلتها ظهورا للبيوت، فإذا كانت لا ترضيكم ف ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾» (3)(1).

(1) تفسير ابن باديس، ص159، عن المرجع السابق.

(2) سورة النساء، الآية: [59].

(3) سورة الشورى، الآية: [15].

ثانياً: تحذير الشيخ ابن باديس من طرائق أهل الكلام:

الشيخ ابن باديس وهو الداعية الفقيه حرص على ربط الناس بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ بهما الشفاء واليقين وفي هذا يقول: «قلوبنا معرضة لخطرات الوساوس بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن»(2).

وقد أدرك الشيخ ابن باديس أن من أسباب الضلال والبعد عن هدي القرآن التعلق والاغترار بمسالك أهل الكلام وطرائقهم المعقدة الصعبة التي تورث الشكوك وتسبب ضعف اليقين بأدلة الكتاب والسنة.

وفي هذا يقول الشيخ ابن باديس: «بسط القرآن عقائد الإيمان بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين. وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها الصعبة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة»(3).

فقد زعم أهل الكلام أن الصواب في أدلتهم المعقدة وأن أدلة القرآن لا تورث اليقين فصدوا الناس عن الرجوع إلى كتاب ربهم فيما يستدلون له من عقائدهم، وأشغلوها بمسائل ودلائل ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره 39/3.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، 1/ 158.

(3) تفسير ابن باديس، ص282، عن فلسفة الإمام ابن باديس، ص25.

ويقول الشيخ ابن باديس: «وأما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله، وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه» [1].

ثالثا: تقرير الشيخ ابن باديس لأهمية التوحيد:

التوحيد هو أساس دعوة الرسل عليهم السلام كما قال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [2]. وقال تعالى:﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [3].

وقد قرر هذا الأصل الشيخ عبدالحميد بن باديس وأكده وجعله منطلق إصلاحه بالدعوة إليه والتحذير مما يخالفه.

وجاء في أصول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: «التوحيد أساس الدين فكل شرك في الاعتقاد أو العمل فهو باطل مردود على صاحبه» [4].

وقد ركز الشيخ في هذا السبيل على مسألة الدعاء ووجوب إخلاصه لله تعالى ومما قاله في ذلك: «تسمية الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعاً بغير ما دليل، منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعا: (**الدعاء هو العبادة**)، وحديث: أنس عند الترمذي مرفوعا: (**الدعاء مخ العبادة**). وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر أو

(1) ابن باديس حياته وآثاره، ص158.

(2) سورة النحل، الآية: [36].

(3) سورة الأنبياء، الآية: [25].

(4) ابن باديس حياته وآثاره، 133/3.

جلب النفع فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة أي معظمها، وفي الثاني: بأنه مخ العبادة أي خالصها.

لما ثبت شرعا أن الدعاء عبادة فمن دعا شيئا فقد عبده ولو كان هو لا يسمى دعاءه عبادة جهلا منه أو عنادا لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره...» [1].

رابعا: تحذير الشيخ ابن باديس من الشرك ووسائله:

الشرك أعظم الذنوب وهو موجب للخروج من الإسلام والخلود في النار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [2]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [3].

ولهذا جاء الإسلام بالنهي عنه وسد أبوابه وتحريم وسائله كل ذلك حماية لحياض التوحيد.

وقد شغل جانب التحذير من الشرك ووسائله حيزا كبيرا من دعوة الشيخ ابن باديس وشمر عن ساعد الجد لتحذير الواقعين فيه من سوء فعلهم وخسارة عاقبتهم حتى سطر ذلك في أصول دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومما جاء فيها: «14-اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله في شيء ما شرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 3/288-289.

(2) سورة النساء، الآية: [48].

(3) سورة المائدة، الآية: [72].

15- بناء القباب على القبور ووقد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية، ومضاهاة لأعمال المشركين فمن فعله جهلا يعلم ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال مضل»[1].

والشيخ حينما يحذر من أنواع الشرك ووسائله يفصل ذلك بأسلوب علمي ويذكر دلائله من الكتاب والسنة.

ففي مسألة الدعاء- مثلاً-يقرر بأنه عبادة لا يجوز إلا لله تعالى وذلك حينما يكون طلبا لما وراء الأسباب العادية وفوق طاقة البشر فمن دعا فقد عبد ومن دعُي فقد عُبد ويذكر من دلائل ذلك قوله تعالى:﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[2]، وقوله تعالى:﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾[3]، وقوله تعالى:﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[5].

وأن الاستعاثة كذلك إلا فيما هو في مقدور المخلوق كقولك: يا زيد اسقني ماء أو إنني في عسر مالي فأقرضني وعلى هذا جاء قوله تعالى:﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾[6].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 133/3.

(2) سورة الأعراف، الآية: [55].

(3) سورة الأعراف، الآية: [56].

(4) سورة النمل، الآية: [62].

(5) سورة الجن، الآية: [18].

(6) سورة القصص، الآية: [15].

فطلب منه أن ينصره عليه بما عنده من القوة البدنية...

فالخلط بين القسمين–ما يدخل في طاقة البشر وما يخرج عن طوقهم– وجعلها كلها جائزاً تلبيس وجهل[1].

ويشرح الشيخ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان**)[2].

«فمن اعتقد مثل عقيدتهم أو فعل مثل أفعالهم أو قال مثل قولهم فقد لحق بهم وقد يكون اللحوق تاماً مخرجا من أصل الإسلام، وقد يكون دون ذلك.

فأصل عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم يعلمون أن الله هو خلقهم وهو يرزقهم وهو المالك لجميع المخلوقات، ولكنهم يجعلون توجههم وتقربهم وتضرعهم لآلهتهم على اعتقاد أنها هي تقربهم إلى الله. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونها إلى الله ويتوسطون لها إليه. ويزيدون أنهم يتضرعون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب. ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعونتها. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاء لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر..[3].

---

(1) انظر: ابن باديس حياته وآثاره، 3/33-36.

(2) رواه الترمذي. وقال: هذا حديث صحيح.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، 2/237-238.

هكذا يعقد الشيخ ابن باديس مقارنات بين حال المشركين السابقين وأفعال بعض الناس اليوم مما يبين صدق حديث النبي صلى الله عليه وسلم بلحوق بعض أمته بالمشركين.

وفي موطن آخر يتحسر الشيخ ابن باديس على ما آلت إليه حال كثير من المسلمين من الوقوع في أنواع الضلال فيقول:«انظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين تجد السواد الأعظم من أمتنا غارقاً في هذا الضلال. فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر وجلب النفع وتيسير الرزق وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها ويدقون قبورهم وينذرون لها ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة وحبس النذور وتراهم هناك في ذل وخشوع وتوجه وقد لا يكون في صلاة من يصلي منهم، فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعويين، وإن لم يعتقدوها عبادة إذ العبادة باعتبار الشرع لا باعتبارهم. فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباسا مقلوبا حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال.. [1].

ويذكر الشيخ أنه يعرف كثيراً من الصالحين رحمهم الله «قد شيدت عليهم القباب ونذرت لهم النذور وقصدوا لقضاء الحاجات ودعوا في المهمات وكان ذلك مما أحدثه المحدثون بعدهم...».

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 290/1.

ثم يحذر من هذا الفعل ويبين المنهج الصحيح تجاه الصالحين فيقول: «فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة وهذا الموقف المخزي فبادروا إلى توحيد الله بالدعاء الذي هو مخ العبادة واقتصروا في جانب الصالحين على محبتهم والترضية عليهم وسؤال الرحمة لهم، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير، ولا تعظموهم بما لا يكون إلا لله رب العالمين»[1].

وفي مسألة النهي عن البناء على القبور يذكر الشيخ في هذا السياق عدة أحاديث منها حديث عائشة > أن أم حبيبة وأم سلمة { ذكرتا كنيسة رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**)[2].

وحديث: (**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**)[3].

وحديث: (**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك**)[4].

ومما جاء من تعليق على تلك الأحاديث قوله في ذكر حكمة النهي: «إن القبر المعظم ببناء المسجد عليه والصورة المعظمة لتمثيلها ذلك الصالح يصيران مما

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 1/291-293.

(2) متفق عليه.

(3) متفق عليه.

(4) رواه مسلم.

يعبد ويعتقد فيه النفع والشر والعطاء والمنع فيدعى ويسأل ويطلب منه الحوائج وتخشع عنده القلوب وتنذر له النذور وهذه من العبادة التي لا تكون إلا لله»[1].

ويقول: «هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا نجد أكثر أو كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصلاح، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون. فإن قيل: إنما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم. قلنا النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر بقطع النظر على قصد صاحبه... وذلك لأنها وإن لم تؤد إلى عبادة المخلوق في الحال فإنها في مظنة أن تؤدي إلى ذلك في المآل. وذرائع الفساد تسد لا سيما ذريعة الشرك ودعاء غير الله التي تهدم صروح التوحيد...»[2].

ثم ينكر الشيخ سكوت الدعاة عن بيان الحق مما سبب انتشار هذه البدعة فيقول: «ولا نستعظم انتشار هذه البدعة وكثرة ناصريها فإنها ما انتشرت وكثر أهلها إلا بالسكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به»[3].

ومما أنكره الشيخ الألفاظ الشائعة التي فيها تشريك بين الخالق والمخلوق بحرف الواو مثل قول هذا بالله وبك وما شاء الله وشئت ونحو ذلك.

وفي هذا يقول الشيخ: « إذا نظرنا في حالة السواد الأعظم منا معشر المسلمين الجزائريين فإننا نجد هذه الكلمات شائعة بينهم فاشية على ألسنتهم وهي: (بربي والشيخ) وهم يعنون أن ما يفعلونه هو بالله وبتصرف الشيخ (بربي والصالحين) ،(بربي

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 2/246-247.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، 2/247-248.

(3) المرجع السابق 2/248.

والناس الملاح) ،(إذا أحب ربي والشيخ)، (شوف ربي والشيخ)، وهي كلها من كلمات الشرك كما ترى، فأما قولهم: (بربي والشيخ) ونحوه فمما لا يجوز أن يذكر فيه المخلوق مع الخالق قطعا لأن ما تفعله هو بالله وحده أي بتقديره وتيسيره ولا دخل للمخلوق فيه, وأما قوله: (إذا أحب الله والشيخ) فمما لا يجوز إلا بلفظة ثم. فيكون بمعنى إذا شاء الله ثم شاء الشيخ إذا كان هذا الشيخ حيا وكان الأمر مما يمكن أن تدخل مشيئته فيه، ولقد شب على هذه الكلمات ونحوها الصغير وشاب عليها الكبير، وانقطع عنها النهي والتغيير، حتى صارت كأنها من الكلمات المشروعة.. [1] .

خامساً: تحذير الشيخ ابن باديس من البدع وأهلها:

البدعة كل إحداث في الدين قصد به التقرب إلى الله تعالى وهي محرمة بجميع أنواعها وقد قال الله تعالى:﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [2] .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)** [3] . وفي رواية: **(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)** [4] .

وقد اجتهد الشيخ عبدالحميد بن باديس في التحذير من البدع وبيان مخالفتها للسنة بذكر الأدلة الشرعية على مخالفتها لدين الإسلام.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 244/2.

(2) سورة الشورى، الآية: [21].

(3) متفق عليه.

(4) رواه مسلم.

وهذا المنهج واضح سطره الشيخ في سياق أصول جمعية العلماء الجزائريين بقوله:«7–البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم –فعله وكل بدعة ضلالة» [1].

وحدد الشيخ الطريقة المثلى للقضاء على البدع وذلك بنشر السنة فقال: «لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنة النبوية ولا نستعظم انتشار هذه البدعة وكثرة ناصريها فإنما ما انتشرت وكثر أهلها إلا بالسكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به» [2]. يقصد حديث النهي عن البناء على القبور.

ويرد الشيخ على أهل البدع المنتفعين ببقائها الذين يقاومون دعاة الإصلاح المنكرين لها ويحتجون عليهم بأن العلماء المتقدمين لم ينكروا تلك البدع، ويشبه الشيخ موقفهم بما قاله الأولون:﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [3]، و﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [4].

ثم يورد الشيخ نقولاً عن المتقدمين في الإنكار على المنحرفين من المنتسبين للتصوف والزهد [5].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 132/3.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، 248/2.

(3) سورة المؤمنون، الآية: [24].

(4) سورة الزخرف، الآية: [22].

(5) ابن باديس حياته وآثاره، 43/3-47.

ومما يلفت النظر في دعوة الشيخ ابن باديس مقارعته للطرقية المنحرفين وتحذيره منهم وهذا راجع إلى أمرين:

الأول: ما اشتمل عليه واقعهم من الخرافة والبدعة والبعد عن العلم.

الثاني: وقوع كثير من شيوخهم في شراك المستعمر وتعاونهم معه ولذا عمل المستعمر على تقديس المزارات الصوفية وزيارة قبورهم ودعم شيوخهم.

يقول الشيخ ابن باديس: «كان الناس كأنهم لا يرون في الإسلام إلا الطرقية.. ولقد صمد (الشهاب)[1] للطرقية يحارب ما أدخلته على القلوب من فساد عقائد وعلى العقول من باطل وأوهام وعلى الإسلام من زور وتحريف وتشويه، حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من الصعاب..»[2].

وجاء في أصول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

«16- الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال.. ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور»[3].

---

(1) مجلة كان يشرف عليها الشيخ ويكتب فيها.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، 368/4-369.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، 133/3.

فالشيخ ابن باديس واجه بدع الطرقية وأربابها بل وذم الحكومات التي ترعاها كما في مهاجمته لحكومة مصر والتي قال فيها: «وأما الحكومة الطرقية فهي حكومة مصر التي تشارك المشاركة الرسمية في بدع المواليد وتؤيد تأييدا رسميا الاجتماعات الصوفية بما فيها من مناكر وقبح مظاهر وسوء مناظر... ويواطؤها على هذا علماؤهم الرسميون بسكوتهم وإقرارهم وأحيانا بدفاعهم وتأويلاتهم...».

وفي مقابل ذلك مدح الحكومة السعودية بمحاربتها للبدع والضلالات فقال: «فالحكومة السعودية التي طهرت الحجاز من البدع والضلالات والخرافات ورجعت اتباع الطرق التي تسمى نفسها الطرق الصوفية إلى عقولهم ودينهم... على أن الحكومة السعودية ما طاردت الطرق لأنها تصوف، وإنما طاردتها لأنها مدعية بالباطل ومتصفة بضده وأن الحكومة المصرية ما نصرت الطرق لأنها تصوف وإنما ناصرتها لأن غالب علمائها الذين يعيشون على رواتبها وعلى رضا العامة وتعظيمها واستغلال جهلها أقروها على ذلك وحسنوه لها...

وسيبقى كذلك على الدهر من ينصر السنة ويؤيدها ويدافع عنها ومن ينشر البدعة وينفخ في بوقها وينقر على طلبها، و(لينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) (1) (2) «.

ويقول:«مصر التي هي مبعث أكثر البدع والضلالات الاعتقادية والعملية من يوم انتصبت فيها دولة الفاطميين فرسخت فيها البدع الطرقية وغير الطرقية- والطرق حيثما كانت فهي تكأة وملجأ البدع والخرافات- وصارت الخطة الطرقية من الخطط

(1) سورة الحج، الآية: [40].

(2) ابن باديس حياته وآثاره، 3/48-50.

الإسلامية في الحكومات المصرية التي تحميها وتؤيدها فصارت البدع والضلالات رسمية في نظر المسلمين وغير المسلمين وجاء الأزهر وأهل الأزهر- إلا قليلا- على دين الدولة وهوى الدولة يقرون تلك البدع والضلالات..»[1].

فالشيخ ~ قاوم البدع وحذر منها كما سبق في ذكر تحذيره من دعاء غير الله والنذر لغير الله والذبح لغير الله وبناء المساجد والقباب على القبور وغير ذلك.

ومن البدع التي أنكرها الشيخ قراءة القرآن حال تشييع الجنازة والدفن فقال: «إن السنة في المحتضر وفي تشييع الجنازة وفي الدفن هو الصمت للتفكر والاعتبار. فإذا نطق الحاضر فليكن نطقه بالدعاء للميت بالمغفرة والرحمة...

وأما قراءة القرآن عن الميت حين موته وحين تشييع جنازته وحين دفنه فلم يكن معمولا به في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة إذ لم ينقل ذلك في الصحيح من كتب السنة والأثر مع توفر الدواعي على نقله لو كان موجودا إلا الأثر المروي في قراءة سورة يس عند رأس الميت عند موته على خلاف فيه، ولهذا كان ترك القراءة هو السنة وكان أفضل من القراءة في المواطن الثلاثة المذكورة»[2].

مسألة التوسل:

وقد بسط الشيخ الكلام في مسألة التوسل وفرق بين التوسل والدعاء فذكر أن دعاء المخلوق ممنوع وأن التوسل بدعاء المخلوق الحي بأن يطلب منه الدعاء مشروع. كما عرض لمسألة التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وذكر أن التوسل بدعائه في

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 66/3.

(2) ابن باديس حياته وآثاره، 76/3.

حياته مشروع وأن التوسل بذاته جائز مرجوح وأن طلب الدعاء منه بعد موته بدعة لم يفعله الصحابة، وأن الراجح في التوسل إلى الله تعالى هو التوسل إليه بأسمائه وصفاته وأعمال العبد في أنواع طاعاته[1].

فالشيخ وإن أجاز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه جعله مرجوحا وبين أن الصحابة } لم يفعلوه... وهذا يبين ميل الشيخ إلى كراهته ولكن ربما لم يجرؤ على التصريح بذلك لاعتبارات دعوية وترجيحا لمصلحة أعظم.

والمقصود أن الشيخ ~ قارع البدع وأهلها بالحجة والبرهان وبالحكمة والرحمة.

ورد على شبهاتهم في هذا الباب ومن ذلك رده على من يحتج بحسن النية والقصد على تسويغ البدع حيث رد الشيخ على ذلك بقوله: «وكثيرا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج إلى الأضرحة وإيقاد الشموع عليها والنذور لها وكالرقص وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات ويتوكؤون في ذلك كله على (**إنما الأعمال بالنيات**)[2] كلا (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) فإن البدع كلها من قسم المخالفات، وإن المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات»[3].

الخاتمـة

وبعد هذه الومضات من جهود الشيخ وكلماته التي سطرها يراعه وأثارتها غيرته على عقيدة الإسلام، وحبه لمجتمعه، وحرصه على تنقية الدين مما شابه يتبين لنا ما

(1) ابن باديس حياته وآثاره، 2/187-197.

(2) متفق عليه.

(3) ابن باديس حياته وآثاره، 2/186.

كان عليه الشيخ عبدالحميد بن باديس من عقيدة إسلامية ودعوة سلفية تسعى إلى ربط الناس بمصادرهم الأساسية من الكتاب والسنة وآثار الصحابة وأهل القرون المفضلة، وتحذرهم مما يخل بذلك من بدع وانحرافات تصد الناس عن الاستقامة وتبعدهم عن الهداية.

رحم الله الشيخ ابن باديس ورفع درجاته في عليين.